كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميـة

صور المعاني
في
حديث " أطت السماء "
قراءة ثانية

إعداد

د/عبدالباقي علي محمد يوسف

أستاذ البلاغة والنقد المساعد
في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد السادس والثلاثون الجزء الأول٢٠١٧م)

بسم الله الرحمن الرحيم

" لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه" ﷺ!.

الجاحظ [١]

"من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور وتحدث فيها خواص ومزايا بعد ألا تكون".

عبدالقاهر الجرجاني[٢]

" والمهم هنا هو بيان أن التباين القائم لا محالة بين صور المعاني المتولدة من الألفاظ، هو نفسه التباين القائم بين صور المعاني المتولدة في القلوب"

أبو موسى[٣]

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٤/٢ طبعة دار ومكتبة الهلال ببيروت ١٤٢٣هـ.

(٢) دلائل الإعجاز صـ ٤٨١ بتحقيق شاكر.ط/الثالثة ١٤١٤هـ.دار المدني بالقاهرة.

(٣) دراسة في البلاغة والشعر صـ ٧٢ ط/ الأولى ١٤١١هـ. مكتبة وهبة بالقاهرة .

المحور الأول

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمي الذي أوتي جوامع الكلم، سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

أما قبل ،،،

فإن أفصح العرب قاطبة إنما هو رسول الله ﷺ، وإن كلامه ﷺ أيدته الحكمة، وصحبه التوفيق. وليس فوق بيانه ﷺ سوى كلام الله، فليس بدعا أن يَمَّم البلغاء شطره، وتنسم الألباء رحيقه وعطره. ومازال المشتغلون بصنعة البيان إلى يوم الناس هذا ينغلون في أعطافه، منقِّرين عن أصدافه. ومن أطال المكث في زواياه كُشف له عن خباياه، ومن تملى في أنساقه وتراكيبه وقف على أسراره وأعاجيبه. ولقد كانت أفنان بلاغته من أعلام نبوته... عبرﷺ بعلو لفظه عن سمو نفسه. ودل ﷺ ببديع قوله وبيانه على عظيم خلقه وجنانه. تربع ﷺ ببلاغته النبوية على قمة الأساليب البشرية. وشهد بذلك رائد البلاغة العربية؛ فقال عن كلام خير البرية إنه:" لم ينطق إلا عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق" (١).

هذا،" ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان ... اعتقدَ أن العربيةَ خيرُ اللغاتِ والألسنةِ، والإقبالَ على تَفَهّمِهَا من الدِّيانة؛ إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد"(٢). ويوما ما قال فاروق الأمة وملهَمُها "

(١) البيان والتبيين للجاحظ ١٣/٢.

(٢) فقه اللغة للثعالبي المقدمة صـ ١٥.

تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ فَإِنَّهَا تُثَبِّتُ الْعَقْلَ، وَتَزِيدُ فِي الْمُرُوءَةِ"[١]. وبيّن أهميتها أُبيّ بن كعب فقال:«تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ كَمَا تَعَلَّمُونَ حِفْظَ الْقُرْآنِ»[٢].

انطلاقا من تقرير الثعالبي بأن الإقبال على تفهم العربية من الديانة، وتأسيسا على تقرير الجاحظ من قبل بأن البيان النبوي يستوي على قبة البيان البشري، ولا يعلوه سوى كلام الله ﷻ يمم هذا البحث شطر المرعى الخصيب والروض الأنف؛ فاصطفى واحدا من الأحاديث النبوية، ذلك هو حديث أطيط[٣]السماء؛ من أجل الإبحار في أعماق هذا البيان النبوي العظيم، وقد كان من مقتضيات الرحلة ما وقعت عليه العين من كلام نفيس لعَلَمٍ من رواد البلاغة العظماء، ذلك هو الشيخ عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغة ورائد البلاغيين، الذي لفت إلى فكرة البحث بقوله عن صور المعاني: "من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور وتحدث فيها خواص ومزايا بعد ألا تكون" [٤]. وقد نصب الشيخ بذلك العلم، وأنار الدرب، ومهد الطريق؛ فابتدر اللواء من بعده جمهرة الأولاد والأحفاد، وكان منهم في العصر الحديث الشيخ أبو موسى – باركه الله – الذي فتح عينيّ على هذا البحث بما سطرته يمناه حول صور المعاني عند امري القيس[٥]، وبما قرره من أن " كل تعلق أو احتكاك بين لفظتين يلد لا محالة صورة خاصة لمعنى خاص لا ينطبق على

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٢/٢١٠ بتحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ط/الأولى مكتبة الرشد بالرياض ١٤٢٣هـ..

(٢) مصنف ابن أبي شيبة٦/١١٦ بتحقيق كمال يوسف الحوت ط/الأولى مكتبة الرشد بالرياض ١٤٠٩هـ. .

(٣) أطيطُ الإبل: أَنينُها من ثِقَل الحِمْل.العين للخليل ٧/٤٧٠ د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي. طبعة دار ومكتبة الهلال بيروت من دون تاريخ..

(٤) دلائل الإعجاز صـ ٤٨١..

(٥) مراجعات في أصول الدرس البلاغي المقدمة صـ (ب).ط/٢ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٢٩هـ...

غيره[١]" فراحت الدراسة تستضيئ بعقود النور التي نظمها ذلك الصيرفي بيده الصناع كأجمل ما حبرته اليراع؛ فبان الأمر، واستقام المَنْسِم، وشرعتُ أنقل الخطو على مدارج ذلك اللاحب الأبرّ، دائرا في فلك هذا العنوان: صور المعاني في حديث "أطت السماء" قراءة ثانية. والباحث يتغيا – وتحصيل غايات الفتى من دوافعه[٢]– في بحثه ما يلي:

– جلاء عبقرية التصوير في هذا النص النبوي، وذلك بالكشف عن عناصر الصورة البلاغية تلك الصورة الغنية العامرة ذات الأطياف الكثيفة المتراكبة التي تخطت في هذا الحديث حاجز الزمان والمكان، سيما وأن العين لم تقع على بحث مستقل بهذا الخصوص؛ من هنا كان التصدي لمثل هذا البيان، والتَّهدِّي لمراقيه الحسان مقياسَ وعْى العقل، ومعيارَ قدْر الفهم، والكلام بعدُ "صَلِفٌ تيَّاهٌ، لا يستجيب لكل إنسان، ولا يصحب كل لسان، وله زهو كزهو الملوك، وخفق كخفق البرق"[٣].

– دحض شبهة الحداثيين[٤]الملكيين أكثر من الملك، الذين زعموا أن مصطلح "الصورة" من المصطلحات الحديثة؛ فـ " طغى بمعناه الأعجمي المحدث على معناه العربي القديم في دراساتنا الحديثة، حتى تضاءل هذا المصطلح القديم في بعض

(١) دراسة في البلاغة والشعر صـ ٧٢.

(٢) هذا عجز بيت من الطويل، وصدره: حياة الفتى سعي وراء مطامعه. وهو للباحث.

(٣) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ١/٩ بتحقيق: أحمد أمين، وأحمد الزين، ط/الأولى ١٩٤٤م مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر.

(٤) مصطلح الصورة من المصطلحات التي يتباهى بترددها إخوان الحداثة، وكثير منهم يقذفون الشرر من خلالها إلى تراثنا البلاغي والنقدي، زاعمين فيما زعموا أن البلاغة القديمة لم تعرف يوماً شيئاً عن هذا المصطلح، وأنه " مصطلح حديث، صيغ تحت وطأة التأثر بمصطلحات النقد الغربي". الصورة الفنية في التراث النقدي/جابر عصفور صـ٧. ط/٣ المركز الثقافي العربي بيروت١٩٩٢م.

الكتابات، وصار خاصا بألوان البيان. والواقع أن هذا المصطلح البلاغي له دلالة دقيقة في إطلاقات القدماء"[١]. وزعم أخدان العقابيس[٢] أن البيان العربي لم يعرف إلا الصور الجزئية المفككة. أما أن يتخطى حدود الجزئية إلى شمولية الصورة ذات العناصر المتكاملة والأنساق المتداخلة فلا[٣]. ألا أخزى الله أعداءه! كيف، وبيان النبوة السامق الوامق قد بلغ " أَمَدَ المراد، بألفاظٍ أعيان، ومَعَانٍ أفراد"[٤]؟!!.

–رصد القدرة الفائقة لبيان النبوة على هندسة تصوير المعاني داخل النص النبوي، وكيف أسهم ذلك بحظ وفير في تجلية المقصد المؤم، والوفاء بحق المعنى.

(١) دراسة في البلاغة والشعر صـ ٦٩. وفيه ذكر الشيخ مفهوم الصورة بأنه "ما يدركه المتأمل في المعاني من فوارق دقيقة وشفيفة بين هيآتها وأشكالها وشياتها وملامحها".

(٢) العقابيس: مَا يَظْهَر على الشفَتَيْنِ غِبَّ الحُمَّى. المخصص لابن سيدة ٤٨٣/١. بتحقيق خليل جفال.ط/١ دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٤١٧هـ.

(٣) يقول الإمام عبد القاهر مؤصلا لمفهوم الصورة في التراث البلاغي :"من شأن المعاني أن تختلف عليها الصور وتحدث فيها خواص ومزايا بعد ألا تكون". دلائل الإعجاز صـ ٤٨١. وقد عقد الشيخ أبو موسى مبحثا خاصا تحدث فيه باستفاضة عن الصورة في التراث البلاغي، وراح يتتبع مغارس المصطلح في تراث القوم، وأورد لذلك أمثلة، وعلق عليها، وخلص إلى القول بأن القدماء بسطوا القول في وسائل دراسة الصورة في إطارها العام الذي يشمل القصيدة والرسالة والخطبة، فأحكموا دراسة علاقات الجمل، والفقر، والأغراض ... وأن أصل الصورة في التراث البلاغي مستمد من كلام عبد القاهر وذلك لأن تنوع العلاقات بين الفقر والأغراض مما تختلف فيه هيأة المعاني، وتظهر بها للذهن بينونة فارقة بينها وبين غيرها، وهذا الذي يسميه عبد القاهر " الصورة". يراجع كلام الشيخ أبو موسى في دراسة في البلاغة والشعر صـ ٦٩ وما بعدها.

(٤) سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبى صـ ٤٧ بتحقيق عبدالسلام الحوفى طبعة دار الكتب العلمية بيروت من دون تاريخ .

ولا بدع في ذلك؛ فإن الإفصاح عن خبيئات النفوس مما تتفاوت فيه " القوى، نازلةً إلى حد العجز، أو صاعدةً إلى حد الإعجاز"[١]، وبيان النبوة من الصنف الثاني. أقولها ولا ريب.

– هذا، ومما يمكن ذكره من أسباب اختيار الموضوع – إلى ما سبق – ما تواطأ عليه بعض بني جلدتنا من المهوشين والفارغين من التنكر لكل ما هو عربي، والتنقص من كل ما هو من فصحانا بسبيل، وبث ثقافة الانبهار بآداب يونان ورومان وساسان والعكوف على تمجيدها، كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ، وقد حمَل هؤلاء المتنقصون، وحمّلوا كل عُقْبُول من عقابيلهم بكلتا يديه معولا مسنونا لهدم كل بنيان إسلامي[٢]، ورفعوا عقيرتهم بمقالة السوء في همة لا تعرف الكلال عن علوم العربية – والبلاغةُ منها في الصميم – بأنها "عجوز شمطاء شوهاء بلغت حد اليأس"[٣]، " وهذا كلام ينادي به رجال منا جهارا نهارا، وعلى ربوات هذه الأمة.

(١) النبأ العظيم د محمد عبدالله دراز صـ ٨٥ ط/الأولى ١٩٦٠م مطبعة السعادة مصر .

(٢) تولى كبر هذا الإفك المبين طه حسين الذي "كان يهتم دائما برجع مناقب الأدب العربي إلى أصول فارسية ويونانية" من مقال كتبه زكي مبارك في جريدة البلاغ بتاريخ ١١نوفمبر ١٩٣٢م تحت عنوان الحديث ذو شجون. و"قد رسم الخطة إلى تغريب التعليم والتربية والثقافة في كتابه مستقبل الثقافة في مصر، وسرعان ما نيط به تنفيذ البرنامج فعمل مستشارا ومراقبا ومديرا للجامعة ووزيرا للمعارف خلال فترة تمتد من ١٩٣٩إلى ١٩٥٢م تقريبا ففي خلال ثلاثة عشر عاما كان قد ألقى السموم إلى كل البرامج والمناهج".طه حسين جياته وفكره في ميزان الإسلام لأنور الجندي صـ ٢٣٦.ط/٢.دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٧م. وإن كانت أمانة العلم تقتضي التنبيه على ما كتبه د محمد عمارة عن المرفأ الأخير في حياة هذا الرجل رحمه الله، وذلك في كتابه: طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام الصادر عن مجلة الأزهر سنة ١٤٣٥هـ، فقد ذكر الكاتب رجوع طه حسين عن كثير من أفكاره الأولى التي دارت حولها الكثير من الخصومات الأدبية والعلمية بين مؤيدي الرجل ومعارضيه.

(٣) يراجع: مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب لأمين الخولي ص ٢٠٠، ٢٠١ – ط/ الأولى عن الهيئة العامة المصرية للكتاب، فن القول لأمين الخولي صـ٦٤ ط/الأولى –

ومن ينكره أو يشكك فيه يضرب على أنفه بمقامع الرجعية والتخلف وضيق الأفق ... وغير ذلك مما صار يقوله كل من يعرف ألف باء[1]". فكأن هذه الدراسة تطمح أن تنال شرف الذود عن فصحانا بتجلية نموذج من بيان النبوة، ذلك البيان الناصع الذي جاء يمشي فوق رؤوس الحقب، ويخوض إلينا مفازات القرون، يتقلب بين شموخ ثابت وثبوت شامخ، وقد خلع عليه تعاقب الدهور بردين من جلال ويقين، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد ،،،

فهذا بحث بلاغي عنوانه : " صور المعاني في حديث" أطت السماء" ومرادي بصور المعاني تلك المعارض الأسلوبية، أو القوالب اللفظية التي يصطفيها صاحب البيان؛ لتكون وعاء للمعنى المراد بيانه دون غيرها من المعارض، ووراء ذلك تكمن القدرة البيانية على استحضار الصورة، وتمثيلها حية أمام المتلقي كما هي، وكأنها تحدث توا، حتى كأنه يراها رأي العين، وعملُ الباحث أن ينغلّ في بطون الصور، مستخرجا مضمر الخواطر منها، والتنقير عن صور المعاني التي تسرى في تضاعيف الحديث، ويستمر دبيبها في مفردات البيان، وجمله وتراكيبه، وكيف تم توظيف تلك المفردات داخل الجمل؛ لتكتمل عناصر الصورة، ويتضام كل منها إلى صنوه وشقيقه.

كذلك تحرص الدراسة على تلمس مواطن البراعة في البيان النبوي؛ لتكشف – ما وسعها الجهد – كيف تدفق البيان العالي فحملت كلماته حمولات دلالية ناطقة

الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦م. وقد نقل ذلك الشيخ أبو موسى في دلالات التراكيب صـ ٣ المقدمة. ط/٢ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٨هـ.

(١) دراسة في البلاغة والشعر للشيخ أبو موسى صـ ٤١.ط/١ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤١١هـ.

أدت دورها داخل الصورة ؟ وكيف تجلَّى بمعونة السياق دقة الأساليب داخل النص؟ وكيف أن هذه الأساليب لها وجهة وحيدة، وغاية عظمى تتمثل في خدمة الغرض المؤم، والوفاء بحق المعنى.

النص النبوي بين يدي القراءة الأولى

روى الإمام أحمدﷺ من طريق أَبِي ذَرٍّﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: "إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ. لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا

تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ"[1]. صدق رسول الله ﷺ .

نصاعة بيان النبوة، وفخامة الوحي الأصغر بادية للعيان لا تعوز إلى كبير تأمل، ولا تلجئ إلى موفور عناء؛ إن نظرة واحدة فقط تتبدى معها أَسِرَّة النص، وتتفتح أكمامه؛ فيبتسم النص بمحياه النضير عن معناه القريب اليسير.

المعنى الجملي للحديث يتمثل في زيادة تقرير لعظمة الله ﷻ عن طريق الإخبار عن أنين أطيط السماء من ثقل ما عليها من ازدحام الملائكة، و كثرة ما فيها من الساجدين والمسبحين، كأن كثرة ما فيها من أعداد الملائكة قد أثقلها فجعلها تئط، أي تصوت، من الأطيط وهو صوت الرحل والقتب. وهذا – كما يقول ابن الأثير –" مثل وإيذان بكثرة الملائكة كثرة لا يسعها عقل البشر وإن لم يكن ثَمَّ أطيط، وإنما هو تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى[2]". كما أن في لفظ الحديث إيماء إلى عظمة جلال الحق ﷻ وشدة انتقامه، وأن العاقل لا يغفل عن هذا، وذلك عن طريق قولهﷺ:"لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا.....الخ.

والحديث بهذه الغرابة في الصورة المستهدفِ نقلُها للمستقبِل، والمستعان عليها بالفخامة في اللفظ، ونبل المقصد، يثير استفهامات عديدة ومتنوعة: منها ما مرجعه السياق الكلي الشامل للنص، والمعنى العام للحديث، ومنها ما مناطه السياق الجزئي الدقيق: فأما العام فمثاره = هذه المقابلات المتمثلة في قوله ﷺ :(أرى – لا ترون، أسمع – لا تسمعون، ضحكتم – بكيتم، قليلا – كثيرا) تلك المقابلات اللافتة المبثوثة في تضاعيف بيان النبوة من خلال هذا الحديث الشريف.

(١) مسند الإمام أحمد ٤٠٥/٢٥ بتحقيق شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرين – ط/الأولى مؤسسة الرسالة ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

(٢) فيض القدير للمناوي ٥٣٦/١ – المكتبة التجارية الكبرى مصر ط/الأولى ١٣٥٦هـ.

= هذا مثاره. وأما مساره فخلف الأسرار الكامنة وراء هاتيك المقابلات؛ لإبراز قيمتها، والكشف عن منزلتها في خدمة الصورة الكلية المستهدفة من عموم الحديث. وهذه المقابلات بالنسبة للنص النبوي هنا تشبه جناحي الطائر الذي لا عوض له عن أحدهما، ولا يغنى واحد منهما غَناءَ أخيه.

وإذا كانت المقابلات بهذه الكثافة العالية فمن حق المتصدي لهذا البيان العالي أن يقف عندها مليا، وأن يسأل: لم بدأ بالرؤيا قبل السمع، وما السر وراء شفعها بالسماع؟ وهل من الممكن أن يُلمح وراء تقديم الرؤيا على السمع طيف لما يعرف بتراسل الحواس؛ إذ الأطيط إنما هو من فصيلة المسموعات؟ ثم إذا كان المعنى المؤم للحديث زيادة تقرير عظمة الله وإقامة العبد في مقام بين الخوف والرجاء – كما قال أهل العلم – فهلا اكتفى البيان النبوي بجملة:(إني أرى ما لا ترون) دون قوله ﷺ :(وأسمع ما لا تسمعون)؟ وهل كان من الممكن الاستغناء عن جملة السماع هذه المذكورة عقب جملة الرؤيا؟ وهل مضارعة الأفعال:(أرى – أسمع – ترون – تسمعون) مقصودةٌ، رغبةً في تحقيق هدف متغيا، أو غاية مستهدفة؟ وما عسى أن تكون تلك الغاية؟

وأما الاستفهامات الراجعة للسياق الجزئي الدقيق فتتمثل في البحث عن السر وراء التعبير بالرؤيا دون العلم، فلمَ قال البيان :(إني أرى) ولم يقل مثلا :(إني أعلم)؟ وكيف أسند الفعل (أطت) إلى السماء مع أن أصل الأطيط إنما هو صوت الرحل أو القتب؟ وماذا أضافه القالب الاستعاري في قولهﷺ :(أطت السماء) وإلى أي مدى أسهم ذلك في ثراء المعنى، وخدمة الغرض، والنهوض بالقصد المروم؟ وما السر في البدء بالضحك قبل البكاء فَلِمَ لَمْ يقل مثلا :(لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا) سيما، وأن المتبادر للذهن إنما هو إبراز عظمة الله والتحذير من الغفلة؟ وما موقع جملة:(وحق لها أن تئط) مما قبلها؟ ولم لم يكتف بقوله ﷺ

:(أطت) فلم يكرر فعل الأطيط مرتين: مرة بصيغة الماضي:(أطت) وتارة بصورة المضارع:(تئط)؟ أفلا وسع البيان أن يقول مثلا:(أطت السماء وحق لها) من دون تكرار مادة الأط هذه؟ وماذا عن أسلوب القصر، وكيف أخذ السياق بعنان الأسلوب فانقاد له مطواعا ذلولا فنحا بالكلام نحو القصر في قوله:(ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد"؟. وما تلك الإضافة التي تبرع بها أسلوب القصر، وتصدق بها على المعنى؟.

هذه الاستفهامات وغيرها كافية لمزاولة البحث عن أجوبة لها مخبوءة تحت بيان النبوة المعجز فيما يتعلق بهذا الحديث، ومن ثم فلا بدع أن تقصد الدراسة هذه الواحة المورقة ذات المرعى الخصيب، وتستروح عبيره الفواح المنبعث من الأزاهير الطريرة المونقة المبللة بقطرات الندى!

ومـــا ذاك إلا بيـــان النبـــوة ∴ نعـــم البيـــان ونعـــم المبـــين[1]

هذا، وقد انتظمت الدراسة في مبحث واحد ضم المحاور التالية:

– المحور الأول: المقدمة وفيها عنوان البحث، ومقتضيات انتخابه.

– المحور الثاني: نظرة عامة لجمل الحديث، وفيه طريقة بناء الجمل ومحاولة الكشف عن مدى الانسجام الكامن بينها.

– المحور الثالث: الدراسة التفصيلية، وفيها ما وسع الدراسة بيانه من دقة التصوير النبوي وبراعته، والقدرة الفائقة على توظيف الصورة لتجلية المعنى وجلاء الهدف.

– المحور الرابع: الخاتمة، وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ورصدتها على بيان النبوة في هذا الحديث الشريف، وبعدها فهارس المصادر والمراجع، وفهارس المحتويات، والله من وراء القصد.

(١) هذا بيت من بحر المتقارب. وهو من نظم الباحث.

المحور الثاني

نظرة عامة لجمل الحديث

ليس طويلا هو ذلك الوقت الذي ينفقه صاحبه وقوفا أمام هذه البيان الخالد من أجل الوصول إلى حقيقة قائمة تتمثل في براعة ذلك البيان النبوي في تصوير المعنى والقدرة على تجسيده للعيان، وقد استعان البيان النبوي بروعة الصورة في خدمة المعنى، وفي الوقت نفسه سلك في ترتيب المعاني مسلكا حميدا، وصولا لتحقيق هدفه المتغيا، ومقصوده المروم، ومن ثم فهي أمور ترتب بعضها على بعض: جاءت المعاني مرتبة على نحو معين، وهذا الترتيب عمل على خدمة الصورة النبوية، تلك الصورة التي قامت هي الأخرى بمهمة عظيمة تمثلت في خدمة المعنى، وتجلية الغرض.

إن نظرة واحدة في هذا الحديث النبوي الشريف، وبيانه العالي يظهر معها طريقة تصوير المعاني فيه، وهي طريقة رائعة، فقد ترتب بعض صور المعاني على بعض، الأمر الذي أكسبها انسجاما راقيا، فجاء أولها ممهدا لثانيها، وثالثها ناجما عن ثانيها، ومترتبا عليه.

وكل معنى من هذه المعاني الجزئية يمثل لبنة مهمة في المعنى العام، ولكل واحد من هاته المعاني الصغرى صورة تخصه اصطفاها بيان النبوة، واختصها دون سواها؛ لتكون معرضا يتجلى فيه المعنى، وتبرز محاسنه، كمجلى العروس الكاعب من الحسان الغيد.

ومهمة هذا المحور من الدراسة تسليط الضوء على مدى التناغم بين صور المعاني في الحديث، وما بينها من انسجام وتواشج.

وأول ما يجب التنبيه عليه هنا تلك المقابلات[1] المحورية الدافئة على شاطئي الحديث الشريف التي تجعل القاري بين جناحين متوازيين، وإن تعجب فعجب أن يكون أحدهما في الأرض والآخر في السماء؛ بيان ذلك أن الحديث الشريف يستعين على بيان الغرض المؤم عن طريق صورتين كبيرتين عناصر إحداهما تتمثل في أطّ السماء، وبثها شكايتها عن طريق الأنين، وذلك بسبب ما أثقلت به من أعداد الملائكة، يتزاحمون على جوانبها، ولا شك أن هذا المشهد مكانه في السماء، ثم تأتي الصورة الأرضية المقابلة لهذه الصورة ويمثلها ما رتبه بيان النبوة على علم الصحابة بما يعلمه رسول الله ﷺ من قلة الضحك، وكثرة البكاء، وعدم التلذذ بالنساء، وأخيرا الخروج إلى الصعدات، والجأر إلى الله ﷻ، ولا شك أن هاته الصورة أرضية العناصر، بشرية المشاهد والأرجاء. فهل يبعد أن يكون بيان النبوة استعان على تجلية الفرق بين النبي ﷺ وسائر الصحابة بالبون الشاسع بين الأرض والسماء عن طريق هاتين الصوتين المتقابلتين؟ ولم لا؟ وقد بدأ النبي ﷺ بيانه بتقرير هذه التفرد، وتحقيق ذلك الانمياز؛ فقالﷺ:(إني أري ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون) فاستعان ابتداء على تجلية امتيازه عن سائر الصحابة بطباق السلب القائم بين رؤية النبي ﷺ، وعدم رؤيتهم(أرى – لا ترون) ، ثم بطباق السلب القائم بين سماعه ﷺ، وعدم سماعهم(أسمع – لا تسمعون)؛ فجاء الطباق ابتداء؛ ليوطر لهذا البون، ويجلي ذاك الامتياز. وراح البيان يؤكد الفرق بين النبي ﷺ

(١) ليس المقصود بالمقابلات هنا المقابلات الاصطلاحية من الإتيان بمعنيين أو أكثر ثم الإتيان بما يقابلهما أو يقابلها .... إلخ. إنما المراد المعنى الأعم المطلق للفظة المقابلة. وهو المواجهة. كما عند الفارابي في معجم ديوان الأدب صـ ٢٧٩/٣بتحقيق د أحمد مختار عمر.طبعة مؤسسة دار الشعب بالقاهرة ١٤٣٤هـ.

وكافة الصَّحْب عن طريق استدعاء الشقة القائمة بين الأعمى والأصم والسميع والبصير اللذيْن لا يستويان مثلا.

تلفت الدراسة كذلك لأمر آخر تبرز خلاله محورية التقابل في الحديث تتلمسه الدراسة في كون الصورة الأولى المتمثلة في أطيط السماء، وتزاحم الملائكة على أرجائها صورة غيبية تتعلق بعالم الغيب، وتخص رسول الله ﷺ فيما أُذن له فيه، وأطلعه الله عليه، بينما الصورة الأخرى المقابلة لها والمبنية من قلة ضحك الصحابة، وكثرة بكائهم، وانتفاء تلذذهم بالنساء على الفرش، ثم خروجهم إلى الجبال، ضارعين لله، مستجيرين به، مستغيثين من سطوته برحمته= صورة مرئية، ومكوناتها ومشاهدها متعلقة بعالم الشهادة ، وكأن الفرق بين النبي ﷺ وبين سائر الصحابة يتسع ويتنامى؛ ليمتد في ذلك الفضاء اللامتناهي بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

مما ترصده الدراسة كذلك من مقابلات جزئية تلك المخبوءة داخل الصورة الأرضية التي تمثل بدورها أحد جناحي الحديث الشريف، وأقصد بالصورة الأرضية صورة رؤية النبي ﷺ وسماعه الممتدة إلى ما وراء رؤية الصحابة رضوان الله عليهم وسماعهم، وما يكون من الصحابة لو علموا ما علمه رسول الله ﷺ، كما أخبر الحديث؛ ففي هذه الصورة الممتدة تقع العين على مقابلة جزئية بين علم النبي ﷺ وعدم علم الصحابة، وبين رؤيته ﷺ وانتفاء رؤيتهم، وبين قلة الضحك، وكثرة البكاء، وذلك في قوله ﷺ :(أرى – لا ترون – أسمع – لا تسمعون – ضحكتم – بكيتم – قليلا – كثيرا)، فالقلة تقابل الكثرة، والضحك في مقابل البكاء، والرؤية والسماع المنفيان يقابلان المثبتيْن، وهذه المقابلات تكرس لبُعد ما بين الصورتين الأرضية والسماوية، وتدل على شاسع البون بين النبي والصحابة، وبُعد ما بين المقامين؛ فالنبي ﷺ يري بإذن الله أشياء لا يراها الصحابة، ولو رأوها لغلب عليهم

الهم والبكاء، وفقدوا التلذذ بالنساء، وخرجوا في الفلوات يجأرون إلى الله، ولكنهم لم يفعلوا؛ إذ إنهم لم يروا، ولم يسمعوا ما رآه رسول الله ﷺ وسمعه.

ويمتد فضاء المقابلات بظلاله الكثيفة المتلاحقة؛ ليضفي على المشهد مزيدا من الروعة والبداعة، مؤطرًا لشدة التمايز بين النبي ﷺ وسائر الصحابة من جانب، وزيادة تقرير عظمة الخالق ﷻ من ناحية أخرى؛ وفي كل ذلك بر بالمعنى، وخدمة للمراد، وتجلية للمقصد، وإبراز للهدف، وتلحظ الدراسة ذلك في التقابل الزمني بين رؤية النبي ﷺ وسماعه وعدم رؤية الصحابة رضوان الله عليهم، وانتفاء سماعهم، وكذلك علمه ﷺ وعدم علمهم؛ يتجلى التقابل في كون البيان بدأ في أول الحديث فقدم علم النبي ﷺ على علم الصحابة وسماعه ﷺ على سماعهم؛ فقال ﷺ:(أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون)، بينما خالف الترتيب في آخر الحديث فقدم علمهم على علمه ﷺ حيث قال ﷺ:(لو علمتم ما أعلم).

على أن السياق هو القائد لهذا الترتيب؛ ففي أول الحديث يتجه البيان نحو تأكيد تميز النبي ﷺ عن الصحابة، ومن ثم قدم رؤيته ﷺ على رؤيتهم، وسماعه ﷺ على سماعهم، وذلك على عادة العرب – كما قال سيبويه[1] ونقله عنه عبد القاهر[2] – في أنهم " يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى"، وإنما فعل ذلك ﷺ لينتقل – بعد ترسيخ معنى التفرد – للحديث عن أمر جلل ومشهد عظيم ينقله ﷺ إلى الصحابة من عالم الغيب إلى عالم الشهادة؛ حرصا منه ﷺ على تلقيهم الخبر بالقبول والإذعان؛ ليحملهم بذلك حملا على مشاركته ﷺ في زيادة

(١) الكتاب لسيبويه ١/٣٤. عبد السلام محمد هارون.ط/٣ مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

(٢) دلائل الإعجاز للشيخ عبدالقاهر الجرجاني صـ ١٠٧ بتحقيق الشيخ محمود محمد شاكر – مطبعة المدني بالقاهرة – ١٩٩٢م.

تقرير عظمة الله ﷻ؛ ليكونوا بين الخوف والرجاء، فلا تغرهم الحياة الدنيا ولا يغرهم بالله الغرور. على أن الأمر اختلف في آخر الحديث فأصبح تقديم علمهم أولى؛ لشدة حرصه ﷺ على نجاتهم، وأن يأخذ بحجزهم عن النار كما في الحديث[1]، وذلك عن طريق تحذيرهم من الركون إلى الدنيا[2]، وذلك بأسلوب الشرط الممتنع جوابه لامتناعه (لو علمتم ما أعلم)؛ ليحثهم بذلك حثا على استحضار عظمة المولى ﷻ، وأن يقدروه ﷻ حق قدره، مستعينا على هذه الغاية بأسلوب الشرط الذي امتد جوابه ليصور جملة من الأحداث الجسام المترتبة على علمهم حقيقة الأمر من قلة الضحك، وكثرة البكاء، وترك التلذذ بالنساء، ثم الخروج للفلوات، والاستغاثة بالله تعالى؛ خوفا وطمعا.

على أن مما يلمح في أسلوب الشرط هنا اشتماله كذلك على نوع خاص من التقابل بين فعل الشرط وفعل الجواب؛ ففعل الشرط (علمتم) هذا فعل قلبي من أفعال القلوب، بينما جاءت أفعال الجواب المتمثلة في الضحك والبكاء وترك التلذذ والخروج للفيافي والصراخ والاستغاثة .... كل هذه الأفعال من أفعال الجوارح، فثمة مقابلة بين فعل الشرط وجوابه ففعل الشرط من أفعال القلوب وجوابه من أفعال الجوارح. ويلاحظ أن فعل القلب مثبت للرسول ﷺ منفي عن الصحابة بمعية (لو) الدالة على

---

(١) الحديث في صحيح مسلم، وفيه يقول ﷺ «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَتِ الدَّوَابُّ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهِ، فَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهِ». صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي بعة دار إحياء التراث العربي بيروت ١٧٨٩/٤. حديث رقم ٢٢٨٤. وشرح السنة للبغوي ١٩٧/١ حديث رقم ٩٩ بتحقيق الأرنؤوطي ط/٢ المكتب الإسلامي ببيروت ١٤٠٣هـ.

(٢) يجب التنبيه هنا على أن ذم الدنيا ليس على إطلاقه إنما "المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة " عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى ١٤/ ٢٤٢ بتحقيق عبدالله محمود محمد عمر الطبعة الأولى ٢٠٠١م دار الكتب العلمية بيروت.

امتناع الجواب لامتناع الشرط؛ فالشرط، وهو العلم ممتنع في حق الصحابة، وهو في ذات الوقت ثابت في حق رسول الله ﷺ، ولا يبعد أن يكون رمزا لعلم الباطن الذي يختص به رسول الله ﷺ عن سائر الصحابة، بينما أفعال الجوارح المنفية عنهم لانتفاء شرطها تكون رمزا لعلم الظاهر؛ فيكون ثَمّ تقابل بين علم النبي ﷺ، وهو علم لدنّيّ من لدن حكيم عليم يتعلق بالقلوب أكثر من تعلقه بالجوارح، وبين علم الصحابة المتعلق بظواهر الأشياء أكثر من تعلقه ببواطنها؛ وعلى كل فإن هذا التقابل جاء ليؤطر للفرق الشاسع بين النبي ﷺ والصحابة الكرام، وهذا مما يضاف إلى سلسلة المقابلات الممتدة على صفحة البيان النبوي البليغ الماتع.

مما رصدته الدراسة كذلك التقابل بين صيغة الفعل المسند للنبي ﷺ وتلك المسندة للصحابة – عليهم شآبيب الرضا والكرامة – فالفعل مع الصحابة بصيغة الماضي (لو علمتم) ومع النبي ﷺ بصورة المضارع (أعلم) ولعل في انتخاب الماضي مع الصحابة ما يدل على رغبة النبي ﷺ في نجاتهم، وأنه ﷺ يتمنى لو أنهم علموا ما علم حتى ينجوا من شراك الهوى وحبائله، بينما خرج الفعل المسند إليه ﷺ في صيغة المضارع؛ ليفيد التجدد والحدوث – كما قرر ذلك علماؤنا[1] – وينقل لنا الصورة حية والمشهد متجددا؛ ليجعل المتلقي وكأنه يراه رأي العين، فيزداد إيمانه، ويرسخ يقينه، وتستد عقيدته. ولا بدع في ذلك؛ فالتعبير بالمضارع – كما يقول العلامة أبو موسى حفظه الله – "كأنه يجعل المعنى حاضراً بين يديك، وكأن الأفعال المضارعة في الكلام الحر مرايا تعكس لك الصور والأحداث، فلا تسمعها بأذنك فقط، وإنما تراها بعينك أيضا"[2]؛ ولذلك "ترى المتكلمين من ذوى الخبرة

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٤١٨/١. طبعة الدار التونسية ١٩٨٤م.

(٢) قراءة في الأدب القديم للدكتور/ محمد أبو موسى صـ ٣٢، ٥٨ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٨. ط/ الثانية ١٩٩٨م . مكتبة وهبة بالقاهرة .

بأسرار الكلمات يعبرون به عن الأحداث الهامة التي يريدون إبرازها، وتقريرها في خيال السامع"[1].

تلمح الدراسة كذلك نوعا من التقابل الشكلي بين الصورتين الجزئيتين في أول الحديث وآخره؛ فالرؤية والسماع جاءتا مثبتتين للنبي ﷺ في أول الحديث، منفيتين عن صحابته – عليهم سحائب المغفرة – (أرى – أسمع – لا ترون – لا تسمعون)، وانعكس المشهد في آخر الحديث – ولو شكلا – فجاء العلم مثبَتا للصحابة رسما وشكلا، منفيا كذلك عن رسول الله ﷺ في الشكل والرسم دون المعنى بالطبع (علمتم – ما أعلم)؛ فهل بوسع الدراسة أن تزعم أن هذا الجو المشحون بصنوف الطباق والمقابلة يعكس مدي قلق النبي ﷺ وخوفه على أمته من السقوط في بئر الأمل، وأن تُفتح عليهم الدنيا فيغرق منهم خلق كثير، ثم ما تلبث أن تدفعهم أمواج الطموح على شواطئ الحرمان؟ ليس هذا عن الدراسة ببعيد، سيما وأن النبي ﷺ صرح في حديث[2] آخر بقلقه ﷺ وخوفه على أمته من الوقوع في حبائل الآمال، والذهول عن مكامن الآجال ثم إن هذا الفهم على هذا النحو يخدم الوجهة العامة للحديث المتمثلة في زيادة تقرير عظمة الله ﷻ؛ فالنبي الكريم ﷺ يملؤه الخوف على أمته؛ لما أطلعه الله عليه من مشاهد عظمته ﷻ، متمثلا في أنين السماء، وتصويتها، وعجيجها بأنواع الملائكة الكرام ذات الأعداد العظيمة

(١) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى صـ ٢٦٤ . الطبعة السادسة ٢٠٠٤م مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) الحديث في الصحيحين، وفيه:" أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ». صحيح البخاري ٨٤/٥ حديث رقم ٤٠١٥ بتحقيق محمد زهير .ط/١. دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ. وصحيح مسلم ٢٢٧٣/٤ حديث رقم ٢٩٦١ بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت من دون تاريخ.

المتزاحمة التي تكاد تسد الأفق؛ حيث لا يخلو موضع شبر، بل ما دون الشبر (أربع أصابع) من ملك ساجد لله، ومسبح له تسبيحا.

وهل بعيد أن تقرأ العين في هاته المقابلات إيماء لتردد العبد بين الخوف والرجاء، ذلك التردد الذي يحرص عليه بيان النبوة، ويغذيه بتلك المقابلات الماتعة التي تذكر العبد بعظمة الله؛ وتنصِب له الأعلام؛ فتردّه لصوابه كلما أعتمت عليه بُنَيَّات الطريق، واشتطت به رياح الأمل؟.

تلمح الدراسة كذلك تقابلا من نوع خاص راح البيان العالي يحققه بين الأفعال في الحديث الشريف؛ وذلك عن طريق استخدام الفعل الماضي الدال بما ضويته على تحقق الوقوع مقابلا للمضارع المعبر به عن التجدد وتكرار الحصول، وذلك في قوله ﷺ :" أطت – تئط)، ثم ما أوجده البيان من تقابلٍ ما بين المسند إليه في أفعال الحديث حيث جاء المسندإليه تارة في صورة ضمير المتكلم (أرى – أسمع – أعلم) وحينا مثَّله ضمير المخاطب (ترون – تسمعون – تعلمون)، وقد استعان البيان بتلك المقابلات الأسلوبية في تجسيد صورة غيبية غير محسوسة تتمثل في أطيط السماء، وراح بيان النبوة ينقل هذه الصورة الغيبية من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حتى كأن المتلقي يراها رأي العين، وكأنها تقع أمام ناظريه، وتتوالى مشاهدها في تناغم عجيب، واتساق لافت؛ فها هي ذي السماء تتابَعُ أنفاسها متصاعدة يملؤها الأطيط والتصويت، والملائكة على أرجائها ما بين سُجَّد وقيام، منهم المسبح، ومنهم الداعي، وفيهم المؤمِّن، تزدحم بأعدادهم جنبات السماء، ويا لها من صورة تعج بالصوت والحركة في مشهد رهيب مهيب مسرحها أديم السماء، ذلك الأديم العظيم الوسيع الذي استوعب جميع الأزمان بالتعبير عن الصورة بلفظ الماضي في قوله ﷺ:" أطت السماء) وبلفظ المضارع في قوله ﷺ :" وحق لها أن تئط).

– ومما ترصده العين كذلك قوله ﷺ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ"، وهي جملة مهمة للغاية، ولا غنى عنها في مسألة المهاد لما يأتي بعدها من جمل، فهي جملة موطئة للغرض في نفس المتلقي، ومهيأة لتقبله بقبول حسن، فإخباره ﷺ بأنه ينماز عن الأمة برؤية أشياء لا يراها سائر المؤمنين مؤذن بتقبل خبر غيبي، ومشعر بالانتقال بالكلام من عالم الشهادة إلى عالم الغيب، والإخبار عن بعض أسرار هذا العالم المغيب الذي غيبه الله عن السامعين، وخص به سيد المرسلين ﷺ، ومن هنا كانت أهمية هذه الجملة الفاتحة التي ألقى بها النبي ﷺ في صدر الكلام، فكانت غرة الحديث، وفاتحة البيان. ولاجرم أنها بذلك تحقق الهدف المتغيا من إيقاظ السامع، وتنبيهه لما سيلقى عليه بعد، على أن أقرب شيء لهذا الصنيع ما أسماه رواد البلاغة حسن الابتداء، وفرع منه المتأخرون براعة الاستهلال(١).

والمعنى المراد تصويره هنا يكمن في إخبار النبي بتفرده عن سائر الناس، وتميزه عليهم بشيات وَهَبَهُ إياها اللطيف الخبير، والصورة التي آثرها البيان النبوي للتعبير عن هذا المعنى تجليها رؤية النبي ﷺ أشياء لا يراها الصحابة، ورؤية الشيء أصل في تصوره.

بعد ذلك تقع العين على جملة "وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ"، وهي جملة مساندة لما قبلها ومؤكدة معناها، فالمعنى المراد تصويره من هذه الجملة هو عينه ما كان في الجملة الأولى، حيث تفرد النبي ﷺ عن عموم الصحابة وكافة المؤمنين بما

(١) ويتحقق ذلك بـ "أن يكون مطلع [الكلام] دالًا على ما بني عليه، مشعرًا بغرض الناظم [أو المبين]، من غير تصريح بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويستدل بها على قصده، من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو". خزانة الأدب لابن حجة الحموي.١/٣٠.

ركبه الله فيه ﷺ من استعداد جبلي، وتكوين نفساني يؤهله لما طُلب إليه، وما أُرسل من أجله، هذا هو المعنى.

أما صورته هنا فتكمن في سماع النبي ﷺ أشياء لا يسمعها الصحابة، أو سائر الناس؛ لفقد الأهلية، وعدم التمكين. ولا يخفى ما بين الصورتين من انسجام؛ فالسمع شقيق البصر من حيث هما من الحواس الخمس.

ثم إن بين الجملتين ما بين المتعاطفين من التغاير، وهذه ظاهر في الفرق بين الرؤيا المنصوص عليها في الجملة الأولى والسمع المذكور هنا، وهما لا شك متغايران؛ إذ السمع وأداته الأذن بخلاف الرؤيا التي مقرها الباصرة، وآلتها العين. والجملة الثانية "وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ" تقع من الأولى موقع التوكيد للمعنى، فإذا كانت الأولى "إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ" أظهرت انمياز النبي ﷺ عن سائر الخلق، فإن الجملة الثانية أكدت ذلك المعنى، وزادته رسوخا في وعي السامع، فشدت بذلك من أزر المعنى، وقوت عراه.

وإذ قد مهد بيان النبوة للمعنى الأم عن طريق جملتي الرؤيا والسماع، فصور بذلك تفرده ﷺ بالنظر في صفحة الغيب المكنون فيما ارتضاه الله ﷻ لنبيه ﷺ ، وأذن له فيه، فأسرج بذلك السرج، ونصب الأعلام، وهيأ المتلقي لما يأتي بعدُ من الكلام = شفع ﷺ ذلك بالجملة الأم المتلفحة بالصورة العظمى لهذا الحديث التي انسدلت منها صور صغرى تضامت فيما بينها وتآزرت على خدمة المعنى الأصيل، والغرض الرئيس المستهدف بيانه؛ فقال ﷺ " أَطَّتِ السَّمَاءُ " أي، صوتت، وأصل الأطيط صوت الرحل والقتب، وهذه الجملة تقع مما قبلها موقع التوضيح والتفسير، فهي مما قبلها بمنزلة عطف البيان، إذ جملتا:" "إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ " تثيران في النفس سؤالا محصّله وما ذاك؟ أو وماذا ترى وتسمع يا رسول الله غير الذي نسمع ونرى؟ فجاءت جملة " أَطَّتِ السَّمَاءُ " لتشبع فضول المتلقي

وتجيبه عن هذا السؤال، فتنقع بذلك غلته، وتروي ظمأه، ذلك الظمأ المتعاظم جراء جملتي السمع والرؤيا السالفتين.

على أن المعنى المبتغى نقله للسامع عبر هذه الجملة " أَطَّتِ السَّمَاءُ " إنما هو تقرير عظمة الله ﷻ المستدل عليه بكثرة الملائكة ما بين ساجد ومسبح وممجد لله ﷻ تلك الكثرة الهائلة التي تفوق التوقع، ويقع دونها تخيل المتخيلين، وتخرص المتخرصين، والصورة المنتخبة لتأطير هذا المعنى وتجسيده تكمن في أطيط السماء كما يئط الرحل من ثقله، والانسجام بعدُ ظاهر للعيان بين صوت الرحل هنا وحاسة السمع في الجملة التي قبلها.

أما جملة: " وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ " فهي جملة مؤكدة لما قبلها من حيث المعنى، فإذا كان النبي ﷺ أخبر في الجملة السابقة أن السماء قد أطت، فإنه ﷺ في هذه الجملة يؤكد المعنى عن طريق تكراره؛ فقد ذكره أولا في صورة الجملة الفعلية الأولى هنا ذات الفعل الماضي، وهي قوله " أطت" وأعاده ثانية عن طريق هذه الجملة ذات الفعل المضارع المحملة بحمولات دلالية ظاهرة الوضوح تثبت المعنى الأول وتقويه؛ فقال ﷺ :" وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ".

والمعنى المستهدف إبرازه من هذه الجملة ازدحام جنبات السماء بالأعداد الغفيرة من الملائكة التي لا يقدر قدرها إلا الله ﷻ، وقد اختار البيان النبوي لجلاء هذا المعنى صورة الأطيط المبرر الذي لا مؤاخذة فيه ولا تثريب على صاحبه؛ فقال ﷺ:" وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ". وهذه الصورة قريبة الرحم بالصورة السابقة؛ ففي كليهما تصوت السماء، غير أن الصورة الثانية تزيد عن الأولى النص على عدم المؤاخذة، فلا لوم على السماء إن هي صوتت. وفيمَ اللوم، وما فوقها من أعداد الملائكة تنوء به كواهل الأرض، وتندك من هوله الجبال الرواسي؟ فحُق لها إذًا أن تئط!.

أما قوله ﷺ: "مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ " فإنها تنزل مما قبلها منزلة عطف البيان؛ ولا يخفى ما بين هذه الجملة وما قبلها من كمال الاتصال لوقوع الثانية من الأولى موقع البيان أو التفسير، وذلك لاشتمال الأولى على نوع من الخفاء أو الانبهام المثير للاستفهام، فالسامع للجملة الأولى يتحرك بداخله سؤال: وما الحامل للسماء أن تئط، وما لها لا تلام ؟ فيسعفه بيان النبوة بالجواب، وهو الجملة الثانية، وفيها يقول:(ما فيها موضع أربع أصابع..... إلخ). كما أن التناغي بين الجمل الثلاثة ظاهر للعيان؛ فالمعنى المقصود تجليته هنا هو عين المعنى في الجملتين السابقتين، والجمل الثلاثة تدندن حول معنى واحد يكمن في كثرة أعداد الملائكة المسبحين والمعظمين والساجدين، الأمر المستوجب لعظمة الله ﷻ، وتنزيهه عن كل نقص، والتحلي بخشيته، وحسن مراقبته، وأن يقدره المؤمن حق قدره، غير أن الصورة المصطفاة لتصوير هذا المعنى هنا غيرها في الأوليين؛ فلقد آثر البيان النبوي هنا صورة الملائكة الساجدين في تقارب وتلاحم تعج بهم جنبات السماء؛ حتى إنه لا يوجد مقدار أربع أصابع في أي ركن من أركان السماوات إلا وعليها ملك ساجد بجبهته يمجد الله ﷻ، ويعظمه.

يأتي بعد ذلك جملة: " لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ " وهي، وإن كانت في الهدف المنصوب جملة واحدة إلا أنه تناسل منها عدة جمل وخرج من رحمها جملة من الصور الفرعية المتضافرة في خدمة المعنى والوفاء بحق الغرض. وهذه الجملة الكبرى المركبة من مجموعة من صغريات الجمل تقع مما قبلها موقع الاستئناف البياني، فكأنه لما أخبر ﷺ عن بعض الغيب المتمثل في أط السماء وتصويتها، ثم شفعه ببيان أحقيتها في ذلك= كأنه ﷺ توقع سؤالا من السامعين مفاده: وماذا نصنع يا رسول الله حيال ذلك؟ أو وما الذي تتوقعه لنا يا رسول الله

إن نحن سمعنا الذي تسمعه، ورأينا الذي تراه؟ فجاء الجواب في قوله ﷺ " لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ".

ومعلوم أن جملة " لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ" جملة شرطية، وما بعدها جواب الشرط، وهي جمل معطوف بعضها على بعض، وكلها تؤطر لمغزى واحد يمثله زيادة تقرير العظمة لله ﷻ، وأن يخشاه العباد خشية تليق بجلال قدره، وعظيم سلطانه، وشدة قوته، وسطوة جبروته ﷻ.

على أن المعنى المراد نقله للمتلقي هنا يتمثل في خطورة الأمر وعظمة ما خفي على الصحابة من قوة الله ﷻ، وقهره وجبروته وسطوته، وعدم علمهم بما يعلمه رسول الله ﷺ.

وقد سبق التمهيد لذلك بقوله ﷺ:" إني أرى ما لا ترون وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ"، واختار البيان لتمثيل هذا المعنى صورة الشرط الممتنع جوابه لامتناعه فقال ﷺ – وقد رتب على تحقق الشرط جملة من الأفعال الممتنعة لامتناع شرطها– :" لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ". وكل هذه الأفعال المترتبة على الشرط والمنتفي حصولها لانتفاء حصول الشرط كلها تطوف حول غاية واحدة لإبراز معنى واحد هو شدة الخوف من الله، وتعظيمه، وخشيته خشية تليق بجبروته، وبما أن النبي ﷺ أعلم الناس بربه؛ فهو أخشاهم لله، وأتقاهم له[1].

(١) يشهد لذلك حديث الموطأ، وفيه يقول ﷺ:" وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِمَا أَتَّقِي". موطأ مالك ٢٠١/١ رقم الحديث ٧٧٧ بتحقيق بشار عواد وحمود خليل. طبعة مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ.

والصور التي اختارها المبين للإفصاح عن المعنى المؤم هنا على الترتيب قلة الضحك، وكثرة البكاء، وانتفاء التلذذ بالنساء، والخروج على الصعدات للجأر إلى الله، والاستغاثة به ﷻ منه.

هكذا جاءت صور المعاني في النص النبوي متسقة على أحسن ما يكون الاتساق، متناغية فيما بينها كأبدع ما يكون التناغي وأملحه. وفي الدراسة التفصيلية يقف البحث وقفة أطول عند البدائل المتروكة لهذه الصور ليستبين السر وراء تركها، وإيثار هاته الصور المصطفاة على غيرها المنتقاة من دون ما سواها.

المحور الثالث

الدراسة التفصيلية

سبق القول أن الحديث يسبح في فلك زيادة التقرير لعظمة الله وشدة سطوته وجبروته، ويستعين المبين على ذلك بمجموعة من المؤثرات اللغوية القوية في أداء مهمتها على أحسن ما يكون الأداء، هذه المؤثرات المتمثلة في حزمة من صور المعاني التي جاءت كالمعارض المثلى لجلاء معانيها، والمستهدف من الحديث إنما هو الترهيب من الركون إلى الدنيا، والترغيب فيما عند الله، وجميع مفردات الحديث وجمله وتراكيبه متجهة هذه الوجهة، مسخرة لخدمة هذا الغرض.

على أن هدف الدراسة الأعظم، ومتغياها الأكيد مستتر وراء المعاني المنشودة في الحديث، يستكشف صورها، ويبرز معارضها، ويتتبع صور المعاني صورة بعد صورة، ويناضل من أجل الوقوف على ما بين تلك المعاني وصورها من وشائج القربى، وأسباب الانسجام. ومن لوازم ذلك التنقيرُ عن عناصر قوة البيان، وحسن توظيفها لتحقيق أكبر درجة من التناغي بين المعاني.

أول ما يقابلنا من المعاني الجزئية في الحديث قول النبي ﷺ :" إنِّي أرى ما لا ترون وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ" وسبق القول أن المعنى المراد تصويره هنا تفرد النبي ﷺ وتميزه عن سائر البشر، وقد عدل بيان النبوة عن الصورة المباشرة القريبة لبيان هذا المعنى، فلم يقل مثلا:"إني أنماز عنكم"؛ لأن هذه الصورة مباشرة ومشاعة للجميع، ولا براعة فيها ولا إبداع، إنما هي تعبير مباشر مألوف. وقد اختار البيان النبوي صورة رائعة لهذا المعنى تتمثل في رؤيتهﷺ ما لا يرون، وسماعه ما لا يسمعون، ولا شك أن ثمة انسجاما بين المعنى وصورته؛ وإلا فالأعمى والأصم والسميع والبصير هل يستويان مثلا؟!.

لقد استعان بيان النبوة في تجلية معنى التمايز القائم بين النبي ﷺ وبين سائر البشر، وهو المعنى المستهدف بيانه= استعان في ذلك بصورة البعد الحاصل بين الأعمى والأصم والبصير والسميع ، وقد وظف البيان النبوي طباق السلب القائم بين سماعه ﷺ وعدم سماع الصحابة – رضوان الله عليهم –، ورؤيته ﷺ وانتفاء رؤيتهم = وظف هذا الطباق لخدمة المعنى، وتقوية صورته في النفس، فالمعنى قائم على تحقيق تميز النبي ﷺ، وتفرده عنهم، وصورة هذا المعنى يظهرها رؤية النبي ﷺ مالا يرون، وسماعه ﷺ ما لا يسمعون، وقد أسهم الطباق في قوله ﷺ (أرى – لا ترون – أسمع – لا تسمعون) في تجسيد هذا التباين. على أن الطباق من الناحية النفسية ربما دل على القاق والخوف[1]، وهذا لا يبعد عن السياق؛ فخوفه ﷺ على أمته لا ينكر، وقلقه ﷺ أن تفتنهم الدنيا عن خشية الله ﷻ وعظمته؛ فلا يقدرونه حق قدره ثابت لا يدفع[2].

ومما يرصد هنا أسلوب التوكيد في قولهﷺ:" إني أري ما لا ترون ومن أقرب دواعي التوكيد وأمسها رحما بالسياق هنا " رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام عند المخاطب وتقريره في نفسه وإن كان غير منكر له"[3]، فالنبي ﷺ حريص على زيادة تقرير عظمة الله في نفوس الصحابة، وإن كانت بالفعل مقررة وحاصلة. ولكنه ﷺ يهدف إلى زيادة تقرير المعنى في نفوسهم حتى يبلغ به عين اليقين. وقريب من هذا ما ذكره الزمخشري عند قول الله تعالى :" وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا

(١) ينظر:الطباق دلالة نفسية في شعر المتنبي د.علي كمال/مجلة المورد العراقية المجلد /١١ العدد ٢ سنة ١٩٨٢ م ص٥٢.

(٢) يحسن هنا استدعاء حديث الصحيحين، وفيه:" أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ». صحيح البخاري ٨٤/٥ حديث رقم ٤٠١٥. وصحيح مسلم ٢٢٧٣/٤ حديث رقم ٢٩٦١.

(٣) خصائص التراكيب ص ٩٦.

خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُم"[1]، وإن كان مستضيئا بحروف النور التي دبجتها يراع ابن جني في هذا الباب عند تعرضه لتحليل بناء المثل المعروف:" شر أهر ذا ناب"[2].

ومن مجالِي التناغي بين المعنى وصورته اصطفاء البيان للرؤيا والسمع دون سواهما من الحواس كاللمس والذوق مثلا، وذلك تماشيا مع صورة أطيط السماء المجاورة لهذه الصورة، فالصوت الصادر عن السماء المعبر عن الأنين أو عظم

(١) سورة البقرة آية ١٤. وعندها قال الزمخشري:"فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية، وشياطينهم بالاسمية محققة بأن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدهما، لأنهم في ادّعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم، لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأنّ أنفسهم لا تساعدهم عليه، إذ ليس لهم من عقائدهم باعث ومحرّك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة واعتقاد. وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة. وكيف يقولونه ويطمعون في رواجه وهم بين ظهراني المهاجرين والأنصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل. ألا ترى إلى حكاية اللَّه قول المؤمنين: (رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا) . وأما مخاطبة إخوانهم، فهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار= على اعتقاد الكفر، والبعد من أن يزلوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به، وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم، فكان مظنة للتحقيق ومئنة للتوكيد" الكشاف ٦٦/١ – ط/٣ دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧هـ.

(٢) يقول في الخصائص:" وإنما احتيج إلى التوكيد في هذا الموضع من حيث كان أمرًا عانيًا مهمًا. وذلك أن قائل هذا القول سمع هرير كلب فأضاف منه وأشفق١ لاستماعه أن يكون لطارق شر فقال: شر أهر ذا ناب؛ أي ما أهر ذا ناب إلا شر تعظيمًا عند نفسه أو عند مستمعه. وليس هذا في نفسه كأن يطرق بابه ضيف أو يلم به مسترشد. " فلما عناه وأهمه، وكد الإخبار عنه "٢، وأخرج القول مخرج الإغلاظ به والتأهيب لما دعا إليه" الخصائص ٣٢٠/١ ط/٤ صادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب من دون تاريخ.

الثقل الملقى عليها جراء تزاحم الملائكة على جنباتها= هذا الصوت يتناغى مع حاسة السمع المعبر بها في قوله ﷺ (وأسمع ما لا تسمعون) ولا يبتعد في الوقت ذاته كثيرا عن الرؤيا المعبر عنها بقوله: ﷺ (أرى ما لا ترون).

ويلحظ حذف مفعول السماع والرؤية في قوله ﷺ :" ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون" والتقدير:(ترونه وتسمعونه) فحذف العائد المنصوب، وهو المفعول، وذلك للتركيز على فعل السماع والرؤيا، ونفيهما عن المخاطبين؛ لتتوفَّر العنايةُ على إثباتِ الفعل لفاعلِه أو نفيه عنه، ولا يَدخلَها شَوْبٌ، كما قال عبدالقاهر(١).

ومن الاستفهامات الراجعة للسياق الجزئي الدقيق البحث عن السر وراء التعبير بالرؤيا دون العلم، فلمَ قال البيان:(إني أرى) ولم يقل مثلا:(إني أعلم)؟ والجواب يكمن في الفرق القائم بين الرؤية والعلم فالفعل (رأي) فيه زيادة معنى على الفعل (علم) ذلك أنه يفيد إلى العلم الرؤية بالباصرة مما يسهم في تثبيت المعنى في ذهن المتلقي وترسيخه بخلاف العلم؛ فإنه يخلو من هذه الزيادة، وهذه الزيادة في المعنى من شأنها أن تخلق نوعا من الاتساق والانسجام بين المعنى وصورته؛ إذ مدار المعنى وقطب رحاه حول تفرد النبي ﷺ عن الصحابة وصورة هذه المعنى تتحقق بمشاهدة أشياء لا يشاهدونها، وهو بعدُ أوفق وأنسب لقوله ﷺ في الجملة الأم في الحديث، وهي الواقعة بُعَيد هاته الجملة، وهي قوله:" أطت السماء".

لا يخفي ما بين الجملتين " أري ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون" من تشابه في المباني وتصاقب(٢) في المعاني، وهذا التشابه في البناء يتساوق مع ذاك

(١) ينظر دلائل الاعجاز بتحقيق شاكر صـ ١٦١. ط/٣.مطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٣هـ.

(٢) المراد بالتصاقب: التشابه ، والتقارب، ينظر: الصحاح للجوهري ١ / ١٦٣ بتحقيق أحمد عبدالغفور عطار الطبعة الثالثة دار العلم للملايين بيروت ١٤٠٤هـ، وغريب الحديث للقاسم بن سلام الهروي ٢ / ٢٣٥ بتحقيق محمد عبدالمعين خان الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ طار

الاتحاد في المعنى بين الجملتين فهما بمثابة جملة واحدة، والتناغم بين المعنى والبناء مما يعلى قدر البيان، ويحلُّه المحلَّ الأعلى، وينزله المنزلة الأسمى؛ فالجملتان وإن فصل بينهما بواو العطف المقتضية للتغاير بين المتعاطفين "لاستحالة عطف الشيء على نفسه"[1] إلا أن الثانية منهما تقع من الأولى موقع التوكيد المعنوي. ولا يخفى كون هذه الصورة الجزئية ممهدة للصورة بعدها المتمثلة في قول المبين:" أطت السماء" وصورة أطيط السماء هذه تقع من البيان بمنزلة الأم ومن المبين بمثابة المعنى المؤم؛ إنها أصل الحديث وقطب رحاه، وحولها تدندن بقية الجمل، ولا يخفى كون المعنى المستهدف تصويره هنا كامنا في ازدحام أرجاء السماء بأصناف الملائكة، وقد ترك البيان النبوي الصورة المباشرة لهذا المعنى فلم يقل مثلا :" كثرت الملائكة، أو ازدحمت السماء بأنواعها" مثلا؛ وذلك لأن هذه الصورة لكثرة الملائكة إنما هي صورة قريبة ومباشرة، ويشترك في القدرة عليها الناس على سواء، فليس بمقدور قائلها أن يتفاصح بمثلها أو يتعالم، إذ ليس فيها سوى مجرد الإخبار عن كثرة الملائكة بلا ميزة تصحبها، أو ميسم يجْليها، وذلك بخلاف قوله ﷺ :" أطت السماء، وحق لها أن تئط"؛ فإنها تتبلج سيما النبوة من مشكاتها.

وقد أسند الفعل (أطت) إلى السماء مع أن أصل الأطيط إنما هو صوت الرحل أو القتب، بيد أن المبين اختار لهذا المعنى القالب الاستعاري، ولا ريب أن الأسلوب

الكتاب العربي بيروت ، تاج اللغة ، و " تصاقب المعاني " من تعبيرات ابن جنى في كتابه الخصائص ٢ / ١٤٥ بتحقيق محمد على النجار طبعة عالم الكتب بيروت من دون تاريخ.

(١) دلالات التراكيب صـ٢٧٨، الطراز للعلوى ٣٤/٢ ط/ الأولى سنة ١٢٢٢هـ. بمطبعة المقتطف بالقاهرة.

الاستعاري هنا أخدم للغرض؛ ذلك أن" الاستعارة من أشرف صنعة الكلام وأجلها"[١]، " وليس في أنواع الكلام أبلغ منها إذا وقعت في موقعها " [٢]؛ فهي" تفعل في النفوس ما لا تفعله الحقيقة" [٣] لذا آثرها البيان هنا؛ لأنها. وهي بعدُ من وسائل التجسيد، ومسالك التصوير، وطرائق التأثير، وقد استعان بها البيان لتصوير االمعنى المروم، وهو زيادة تقرير عظمة الله، ولزوم خشيته وإجلاله، والتسبيح بحمده، والتقديس له. وذلك في قوله: أطت السماء، وهذا على طريق الاستعارة بالكناية، شبه السماء بذي صوت من الإبل المقتوبة، فأطلق المشبه، وهو السماء، وأراد المشبه به، وهو الإبل، ثم ذكر شيئا من لوازم الإبل والأقتاب، وهو الصوت المعبر عنه بقوله: "أطت السماء ينتقل الذهن منه"[٤].

ولسائل أن يسأل عن السر في البدء بالضحك قبل البكاء، فَلِمَ لَمْ يقل مثلا:(لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيرا ولضحكتم قليلا) سيما وأن المتبادر للذهن إنما هو إبراز عظمة الله والتحذير من الغفلة؟

والجواب أنه وإن كان المتبادر للذهن تقديم البكاء على الضحك لتحقيق الاتساق ظاهرا مع المعنى المستهدف، إلا أن الوقوف مليا عند النص يظهر معه أن

(١) نضرة الإغريض في نصرة القريض للمظفر بن الفضل ٢٣/١ نسخة مصورة عن موقع مكتبة المصطفى على الشبكة العنكبوتية.

(٢) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ١٠٩/١ ط/ الأولى ١٩٨٧م بتحقيق عصام شيتو دار مكتبة الهلال بيروت.

(٣) البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ صـ ٤١ بتحقيق: الدكتور أحمد أحمد بدوي، الدكتور حامد عبد المجيد طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالجمهورية العربية المتحدة من دون تاريخ.

(٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٥٣٦/١ المكتبة التجارية – مصر ط/١، ١٣٥٦هـ.

الأخدم للغرض، والأوفق للمقام تقديم الضحك على البكاء؛ ذلك أن الضحك هنا قليل، والبكاء كثير، والكثير هو الأدوم والأبقى، فكأن الضحك إنما هو صورة عارضة، وأن الحال الغالبة يمثلها البكاء، وهو متساوق مع شدة الأمر، ويسهم في زيادة التقرير لعظمة الخالق ﷻ؛ فمن يقف على شدة سطوته ﷻ، ومنتهى عظمته ﷻ يكون حاله البكاء، ولا يضحك إلا لماما. يشهد لذلك ما كان عليه رسول الله ﷺ حيث كان ضحكه تبسما، وكان كثير النظر والتأمل طويل الطروق والتفكير.

كذلك فإن تقديم الضحك على البكاء يذكر بالأسلوب القرآني في آية التوبة:(فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) فقدم الضحك على البكاء، في مقام الوعيد والإخبار عن المنافقين الذين لم يقدوا الله تعالى حق قدره، وهو ليس ببعيد جدا عن هاهنا؛ فزيادة تقرير عظمة الله ﷻ تدفع لمزيد الخشية، ومن ثم تنهى عن الغفلة والنفاق.

ومما يلحظ هنا حذف المنعوت، وإقامة نعته مقامه، وذلك في قوله ﷺ : (لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) حيث انْتَصَبَ (قَلِيلًا وكثيرا) عَلَى الْمَصْدَرِ، لِأَنَّهُمَا نَعْتٌ لِلْمَصْدَرِ أَيْ: ضَحِكًا قَلِيلًا وَبُكَاءً كَثِيرًا. وَهَذَا مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يُحْذَفُ فِيهَا الْمَنْعُوتُ، وَيَقُومُ نَعْتُهُ مَقَامَهُ، وَذَلِكَ لِدَلَالَةِ الْفِعْلِ عَلَيْهِ. وَقَالَ أَبُو الْبَقَاءِ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَا نَعْتًا لِظَرْفٍ مَحْذُوفٍ أَيْ: زَمَانًا قَلِيلًا، وَزَمَانًا كَثِيرًا انْتَهَى. وَالْأَوَّلُ أَجْوَدُ، لِأَنَّ دَلَالَةَ الْفِعْلِ عَلَى الْمَصْدَرِ بِحُرُوفِهِ وَدَلَالَتُهُ عَلَى الزَّمَانِ بِهَيْئَتِهِ، فَدَلَالَتُهُ عَلَى الْمَصْدَرِ أَقْوَى"[1]. وكلام أبي حيان وإن كان في سياق الحديث عن آية التوبة:(فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) إلا أنه ينسحب على جملة الحديث هنا؛ لاتحاد الأسلوبين.

ومما يسئل عنه هنا موقع جملة:(وحق لها أن تئط) مما قبلها، ولمَ لمْ يكتف بقوله ﷺ :(أطت) فلم يكرر فعل الأطيط مرتين: مرة بصيغة الماضي:(أطت) وتارة

(١) البحر المحيط لأبي حيان٥/٤٧٥.بتحقيق صدقي محمد جميل طبعة دار الفكر . بيروت ١٤٢٠هـ.

بصورة المضارع:(تئط)؟ أفلا وسع البيان أن يقول مثلا:(أطت السماء وحق لها) من دون تكرار مادة الأط هذه؟.

أما عن موقع جملة (وحق لها أن تئط) فهي جملة حالية، وهي تقع مما قبلها موقع التوكيد المعنوي، إذ مراد البيان النبوي التأكيد على أطيط السماء، وأن ذلك الأط ناجم عن كثرة أعداد الملائكة، وازدحامهم على أرجائها، وهذه الجملة الحالية إلى جانب إفادة التوكيد لمعنى الجملة السابقة جاءت " لتفيد معنى جديدا على ما أفاده ما قبلها على ما قرره علماؤنا في أغراض تقييد الفعل لتربية الفائدة، أي زيادتها[١] . فالسماء صوتت لثقل الملائكة على جنباتها، ثم هي معذورة في ذلك، ولا تلام. ينصر هذا الفهم رواية البزار، وفيها يقول ﷺ:«أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَمَا تُلَامُ أَنْ تَئِط[٢]" فما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليها ملك ساجد لله أو قائم يمجده ﷻ ويعظمه، ويسبح بحمده، ويقدس له. فالمسند إليه في الجملتين واحد، وهو السماء، ذكرها مرة بالاسم الظاهر، وتارة بالضمير، ومما يعين على هذا الفهم ربط هاتين الجملتين بالواو، وهى للتشريك في مطلق الحكم [٣]؛ لأن " عطف الشيء على الشيء بالواو وشبهها يوجب التشريك في الحكم"[٤]، وفى هذا التواشج بين

(١) هذا عند الخطيب، وعند عبدالقاهر تفيد معنى أصليا، كثيرا ما يكون هو الجزء الأهم في العبارة؛ لذا يوجه إليه النفي والتوكيد. ينظر:الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ١٧٧/١ بتحقيق خفاجى طبعة دار الكتاب العالمى الأولى ١٩٨٩م ، خصائص التراكيب د محمد أبوموسى صـ ٣١٨ الطبعة الرابعة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) مسند البزار ١٧٧/٨ حديث رقم ٣٢٠٨بتحقيق محفوظ الرحمن ط/١ مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ١٩٨٨م.

(٣) نهاية الأرب فى فنون الأدب ٦٠/٧ .

(٤) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ضمن شروح التلخيص ٣/ ١٢ طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان من دون تاريخ .

الجملتين ما يخدم الغرض ويجليه، ويدفع السامع نحو المزيد من تقرير عظمة الله ﷻ عن طريق صورة السماء، وهي تئن جراء ما عليها من أعداد الملائكة.

وأما عن تكرار مادة الأط مرتين فلزيادة التقرير، وقوة التأثير، وذلك من براعة التصوير، وحسن التقدير، فالبيان النبوي يهدف من وراء ذلك لشد انتباه السامع، وإثارة مكامن حسه؛ حتى يكون داخل دائرة الحدث؛ فيستشعر عظمة الله ﷻ وجبروته وسطوة هيمنته عن طريق تكرار أنين السماء وتصويتها الناجم عن كثرة أعداد الملائكة على متنها، والمقام هو الذى حتم اصطفاء هذا الأسلوب، وكأنه ﷺ كرر مادة الأطيط؛ ليكرر السامع معها استشعار عظمة الخالق واستحضار سطوته، وإحاطة سلطانهﷻ.

ولا يمكن إغفال أسلوب القصر هنا، وطريقه النفي والاستثناء، وهي من أقوى طرق القصر، وجملة القصر هنا، وهي قوله ﷺ : مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ". وهو من قصر الصفة على الموصوف؛ فقد قصر البيان هنا صفة الوجود المفهومة من قوله (فيها) أي مستقر أو كائن، قصرها على الموصوف الذي هو الملك الواقع بعد(إلا) والتقدير ما فيها موضع أربع أصابع إلا مستقر عليها ملك ساجد أو قائم، فليس فيها سوى الملك، فلا إنس ولا جن ولا نبات، ولا شيء سوى الملائكة. والجملة تقع مما قبلها موقع السبب من المسبب، أو هي استئناف بياني، كأن سائلا سأل: ولماذا حق للسماء أن تئط؟ فجاء الجواب بهذه الجملة القصرية: مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ" والمعنى المراد تصويره هنا كثرة أعداد الملائكة، وازدحام السماء بهم، وأطيطها جراء ذلك، وصورة المعني تتمثل في هذه الجملة القصرية التي تصور كثرتهم بأن السماء لا يوجد بها موضع أربع أصابع إلا فيها ملك ساجد لله ﷻ والذي أطر لهذه الصورة إنما هو أسلوب القصر

وطريقه هنا النفي و الاستثناء، وهي من أقوى طرق القصر، لأن الخبر غريب في نفسه، فصيغ في هذا القالب الملائم.

تأتي بعد ذلك جملة الشرط التي ختم بها النبي ﷺ حديثه الشريف فقال: "لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ " وهي جملة طويلة مكونة من عدة جمل كلها في حكم الجملة الواحدة في جملة شرطية بدأها النبي ﷺ بنفي العلم عن القوم، ورتب على علمهم مجموعة من الأفعال، وأنهم لو علموا لوقعت منهم، ولكنهم لم يعلموا. على أن المعنى المراد بيانه هنا لا يخرج عن الإطار العام للحديث الدائر في فلك زيادة التقرير لعظمة الله ﷻ.

ومما يرصد هنا زيادة قوله ﷺ " عَلَى الْفُرُشَاتِ" بعد قوله ﷺ:" وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ" مع أن السياق يدل عليها؛ فلو حذف المتعلق، وهو قوله " على الفرشات" لفهم المعنى؛ إذ التلذذ بالنساء يستلزم الفرشات، و ذكر القيد هنا " إنما هو لتربية الفائدة كما يقول علماؤنا [1]، " وتربية الفائدة تعنى أيضا تقرير المعنى وتأكيده"[2]، وذلك نحو قوله ﷻ: (ذلكم قولكم بأفواهكم)[3]؛ حيث ذكر" بأفواهكم قيدا للقول، ولو حُذف لفُهم معناه، لأن القول لا يكون إلا بالفم، ولكن لما كان هذا القول فيه افتراء على الله ﷻ شدد على قائله لتقرير الوعيد في النفس، وبثه في أنحائها؛

(١) ينظر : الإيضاح للخطيب ١٧٧/١ ، خصائص التراكيب صـ ٣١٨. ويلحظ أن القيد عند الخطيب لتربية الفائدة، وعند عبدالقاهر هو المقصود بالفائدة رأسا؛ حتى تتم المقابلة بجزئياتها مع الجملة التالية لها بتحديد المكان " على الفرشات، على الصعدات"، والأولى مكان التلذذ، وقد انتفى من هول ما يرى، وفي مقابلها الجؤار في الصعدات.

(٢) خصائص التراكيب صـ ٣١٨ .

(٣) من الآية ٤ من سورة الأحزاب

حتى تنزجر عن هذا القول الزور[1] ، كما أن البيان قال:" على الفرشات" وذلك لحرص المتكلم على إبرازها، وإشاعتها في جو الكلام، ومن ثم تأكيد الصورة لتحقيق المزيد من تقرير عظمة الله ﷻ.

وبعد ،،،

فهكذا جاء الحديث في هذا الأسلوب الرشيق من المقارنات البديعة الرائقة لتي كانت بالنسبة للبيان كجناحي الطائر اللذين لا يغني أحدهما غناء أخيه، وقد زاد من روعة هذه المقابلات بُعد ما بين الصورتين المتقابلتين؛ حيث بدت هاتان الصورتان على طرفي نقيض؛ فكانت إحداهما غيبية خارج نطاق الزمان والمكان، وكان مسرحها السماوات العلا، وتلك هي صورة أطيط السماء جراء الأعداد العظيمة من الملائكة الكرام على أرجائها ما بين ساجد ومسبح ومؤمن ومبتهل، بينما جاءت الصورة المقابلة لتلك الصورة صورةً أرضية يمكن رؤيتها للعيان متى تحققت مشاهدها، وقد تكونت من ضحك قليل وبكاء كثير، وفقد التلذذ بالنساء، والخروج إلى الفيافي، والجأر بالدعاء إلى الله رب العالمين، ثم تحدر من هذه المقابلة الأم مجموعة من المقابلات الفرعية المنسدلة من الصورتين الكبيرتين، وذلك مثل: المقابلة بين سماع النبي ﷺ وعدم سماع الصحابة، ورؤيته ﷺ وانتفاء رؤيتهم، وكالمقابلة بين علم النبي ﷺ وعدم علم الصحابة رضوان الله عليهم، والمقابلة بين قلة الضحك وكثرة البكاء، وغيرها من المقابلات الفرعية التي رصدتها الدراسة في مغناها، ووقفت على مبناها ومعناها.

كان بيان النبوة العالي موفقا أيما توفيق في تصوير المعاني وتشخيص البون الشاسع، وتجسيد الفارق الأعظم بين الصور المتقابلة، وتغيّا من الأساليب ما يتناغى والغرض، ويتناغم والسياق؛ فجاءت صور المعاني قوية عامرة فيها جدة،

(١) صـ ٣١٨ من خصائص التراكيب .

وفيها ابتكار يتمثل في تصوير كثرة الملائكة بصورة السماء التي تئن وتصوت من ثقل ما عليها، فترك الصورة المأهولة والطريق المطروق، وسلك طريقا فريدا فيه بداعة وطرافة، والشيء نفسه تقع عليه العين في صورة الفارق بين النبي ﷺ والصحابة المصوَّر في صورة البون البعيد بين الأعمى والأصم والسميع والبصير، وكذلك استدعاء الجملة الشرطية لتجسيد ذلك الفارق، وترتيب عدة أفعال أخبر البيان أنها لم تقع؛ لأن وقوعها مقرون بأن يعلم الصحابة ما يعلمه رسول الله، غير أنهم لا يعلمون ما يعلم؛ ومن ثم فلم تقع، وقد توصل البيان بذلك لخدمة المعنى المروم من أقصر طريق؛ ليزيد من تقرير عظمة الله في نفوس السامعين ... إلى غير ذلك مما تناولته الدراسة مفصلا في مظانه.هذا فيما يتعلق بالمعاني.

أما فيما يتعلق بصورة المعنى فقد جاءت كسائر كلامه ﷺ بتوفيق الله وتأييده ووحيه، والسياق هو الذي قاد إليها، فلا تجد صورة يخاصمها موضعها، ولا مشهدا يند به مغناه، إنما سكنت كل صورة في موقعها الأليق، ومكانها الأنسب، مما يدل على علو البيان، وعظمة المبين، وقد سبق بيان ذلك في تضاعيف الحديث.

أما الأفكار فقد جاءت متناسقة متسلسلة ليس فيها تفكك، ولا بينها قطيعة، والرحم بينها قوية؛ إذ تأخذ كل فكرة جزئية بحجز أختها؛ لتتآزر هاته الأفكار على هدف واحد هو خدمة الغرض المؤم، وتجلية الفكرة الأم، ولا تقع العين في امتداد الحديث على فكرة تشذ عن هذا الكلام.

التناغم بين الألفاظ والمعاني يشكل لونا بديعيا رائقا يسمى ائتلاف اللفظ مع المعنى[1]، كما أن التناسب بين الألفاظ بعضها البعض يسمى عند البلاغيين

(١) عرفه ابن أبي الإصبع بأن تكون ألفاظ المعني المطلوب ليس فيها لفظة غير لائقة بذلك المعنى. تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ١٩٤/١بتحقيق حفني محمد شرف طبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي بالجمهورية العربية المتحدة.

الائـتلاف اللفظـي[١]، وأمـا هـذا التوافـق والـتلاحم بـين المعـاني فإنـه يطلـق عليـه الائتلاف المعنوي[٢]، واشتمال الحديث على كـل هذه الائتلافات البديعيـة يعلـي – لا جرم – قدره ، ويبوئه المكانة الساميـة .

لا يمكن إغفال الموسيقى الخارجيـة فـي الحديث والمتمثلـة فـي التجنيس بين حروف اللفظة المفردة، وفـي التنـاغي بين مفردات التركيب، فأمـا تجانس الحروف فمنه ذلك الذى بين الألفات المبثوثة في كلمـة(ما) المكررة أربـع مرات فـي الحديث، وكلمة (لا) المكررة ثلاث مرات، ثم كلمات أخرى فيهـا الألف مثل:(أَرَى – السَّمَاءُ – لَهَا – إِلَّا – سَاجِدٌ – عَلَى – الْفُرُشَاتِ – عَلَى – الصُّعُدَاتِ – إِلَى – اللهِ)، ثم بين التـاءات الموجودة فـي كلمـات مثل(تـرون – تسمعون – أطت – تئط – علمتم – ضـحكتم – بكيـتم – تلـذذتم – الفرشـات – الصـعدات – تجـأرون) ومثـل هاتيـك الحروف المكررة داخل المفردات تشهد للبيان بالبداعة، وللمبين بالمكنة والاقتدار[٣].

هذا،وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله،وصحبه، وسلم.

المحور الرابع

الخاتمة

الحمد لله، وصلاة، وسلاما على خيرة عباده، وصفوته من خلقه، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

(١) الائتلاف اللفظي أن يكون في الكلام معنى يصح معه هذا النوع، ويأخذ عدة معانٍ فيختار منها لفظة بينها وبين الكلام ائتلاف. خزانة الأدب لابن حجة الحموي ٢/٤٤٥.

(٢) الائتلاف المعنوي أن يكون الكلام مشتملا على أمرين فيقرن بكل واحد منهما ما يلائمه من حيث كان لاقترانه به مزية غير خافية. الطراز للعلوي ٣/٨١.

(٣) ينظر مدخل إلى كتابى عبدالقاهر د محمد أبو موسى صـ ١١٦ الطبعة الأولى ١٩٩٨م وهبة بالقاهرة.

أما بعد ،،،

فقد خلصت هذه الدراسة بعد رحلتها مع الحديث الشريف مناط البحث إلى النتائج التالية:

-من خصائص البيان النبوي في هذا الحديث أنه قدم للمعنى المؤم بجملة تمهيدية، وهي قوله ﷺ :" إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون" لتتهيأ النفس لتلقي ما يأتي بعدُ من أمور غيبية تتمثل في أطيط السماء، وازدحام الملائكة على أرجائها، ولاجرم أنه بذلك يحقق الهدف المتغيا من إيقاظ السامع، وتنبيهه لما سيلقى عليه بعد، على أن أقرب شيء لهذا الصنيع ما أسماه رواد البلاغة حسن الابتداء و فرع منه المتأخرون براعة الاستهلال(١).

-رصدت الدراسة عدة من المقابلات التي أثرى بها البيان النبوي، وقد أخذت هذه المقابلات أشكالا مختلفة، واتجاهات متباينة، وعللت الدراسة شيوع المقابلات في مثل هذه المقامات بمدى خوف النبي ﷺ وقلقه وحرصه على أمته، ومن ثم تحذيره ﷺ إياها من الركون إلى زهرة الدنيا، والانشغال بذلك عن الآخرة.

-نجح بيان النبوة أيما نجاح في توظيف طباق السلب لتعزيز التمايز الحاصل بين النبي ﷺ وسائر الصحابة، وذلك باستخدام البون البعيد بين الأعمى والأصم والسميع والبصير؛ ليكون صورة لمعنى تفرده ﷺ عن الصحابة بما اختصه الله ﷻ به دون سواه من سائر البشر.

---

(١) ويتحقق ذلك بـ "أن يكون مطلع [الكلام] دالًا على ما بني عليه، مشعرًا بغرض الناظم [أو المبين]، من غير تصريح بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويستدل بها على قصده، من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو". خزانة الأدب لابن حجة الحموي.١/٣٠.

– رصدت الدرسة في جملة الشرط النبوية الواردة في الحديث امتداد جواب الشرط عن طريق توالي عدة جمل معطوف بعضها على بعض، وبينت الدراسة كيف أن هذا الامتداد في جملة الجواب يؤطر للمعنى المراد تحقيقه من زيادة التقرير لعظمة الله.

– رصدت الدراسة في هذا الحديث تقابلا بين صورتين كبيرتين: إحداهما غيبية سماوية، وهي أطيط السماء جراء ثقل الملائكة، وازدحامهم في أرجائها، والأخرى أرضية حاضرة مكونة من مجموعة من المشاهد المرئية من كثرة البكاء، وقلة الضحك، وترك التلذذ بالنساء، ثم الخروج إلى الصعدات والضراعة إلى الله ﷻ، وقرأت الدراسة ذلك في ضوء تعزيز الفارق بين النبي ﷺ وسائر الصحابة عن طريق ذلك الامتداد الهائل بين السماء والأرض، وبين الغيب والشهادة.

– لا يمكن إغفال أنوار البديع الساطعة على صفحة هذا البيان الراشد، تلك الأنوار التي جاءت عفو البديهة، وفيض الخاطر، فلا تكلف، ولا استكراه، وقد تجلى ذلك في المقابلات السارية في النص كله، و هي التي قام عليها المعنى، ومن أمثلتها:(أرى – لا ترون – أسمع – لا تسمعون – بكيتم – ضحكتم – قليلا – كثيرا).

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم!

فهرس المصادر والمراجع

- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني بتحقيق خفاجي طبعة دار الكتاب العالمي الأولى ١٩٨٩م.وطبعة دار الجيل بيروت من دون تاريخ.
- الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان بتحقيق:أحمد أمين، وأحمد الزين، الطبعة الأولى ١٩٤٤م مطبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر.
- البحر المحيط لأبي حيان بتحقيق صدقي محمد جميل طبعة دار الفكر ، بيروت ١٤٢٠هـ.
- البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ بتحقيق.د/ أحمد بدوي، حامد عبد المجيد طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالجمهورية العربية المتحدة من دون تاريخ.
- البيان والتبيين للجاحظ طبعة دار ومكتبة الهلال ببيروت ١٤٢٣هـ.
- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع بتحقيق حفني محمد شرف. طبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي بالجمهورية العربية المتحدة.
- التحرير والتنوير لابن عاشور. طبعة الدار التونسية ١٩٨٤م.
- (الحديث ذو شجون) مقال كتبه زكي مبارك في جريدة البلاغ بتاريخ ١١نوفمبر ١٩٣٢م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ط/ الأولى ١٩٨٧م بتحقيق عصام شيتو دار مكتبة الهلال بيروت.
- خصائص التراكيب د أبو موسى ط/الرابعة ١٤١٦هـ مكتبة وهبة بالقاهرة.
- الخصائص لابن جني بتحقيق محمد على النجار طبعة عالم الكتب بيروت من دون تاريخ.

-دلائل الاعجاز للشيخ عبدالقاهر بتحقيق شاكر. ط/٣.مطبعة المدني بالقاهرة ١٤١٣هـ.

-دراسة في البلاغة والشعر د/محمد أبوموسى الطبعة الأولى ١٤١١هـ. مكتبة وهبة بالقاهرة.

-دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى ط/٢ مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٠٨هـ.

-سحر البلاغة وسر البراعة للثعالبي بتحقيق عبدالسلام الحوفي طبعة دار الكتب العلمية بيروت من دون تاريخ .

-شعب الإيمان للبيهقي بتحقيق د/عبد العلي عبد الحميد حامد مكتبة الرشد بالرياض ط/١ ١٤٢٣هـ.

-شرح السنة للبغوي بتحقيق الأرنؤوطي ط/٢ المكتب الإسلامي ببيروت ١٤٠٣هـ.

-الصحاح للجوهري بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار ط/٣ دار العلم للملايين بيروت ١٤٠٤هـ.

-صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت من دون تاريخ.

-الطباق دلالة نفسية في شعر المتنبي د.علي كمال/مجلة المورد العراقية المجلد /١١ العدد ٢ سنة ١٩٨٢م.

-الطراز للعلوى ط/١. سنة ١٢٢٢هـ. بمطبعة المقتطف بالقاهرة.

-طه حسين حياته وفكره في ميزان الإسلام لأنور الجندي.ط/٢.دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٧م.

-عمدة القارى شرح صحيح البخارى للعينى بتحقيق عبد الله محمود محمد عمر الطبعة الأولى ٢٠٠١م دار الكتب العلمية بيروت.

- العين للخليل بتحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي. مكتبة الهلال من دون تاريخ.
- غريب الحديث للقاسم بن سلام الهروي بتحقيق محمد عبدالمعين خان الطبعة الأولى. دار الكتاب العربي بيروت١٣٩٦هـ.
- فن القول لأمين الخولي ط/١ – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦م.
- فيض القدير للمناوي المكتبة التجارية الكبرى مصر ط/الأولى ١٣٥٦هـ.
- الكتاب لسيبويه بتحقيق عبد السلام محمد هارون.ط/٣ مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.
- الكشاف للزمخشري. ط/٣ دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧هـ.
- المخصص لابن سيدة بتحقيق خليل جفال. دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٤١٧هـ.
- مدخل إلى كتابي عبدالقاهر د محمد أبو موسى الطبعة الأولى ١٩٩٨م وهبة بالقاهرة.
- مراجعات في أصول الدرس البلاغي د/ محمد أبو موسى ط/٢. مكتبة وهبة بالقاهرة ١٤٢٩هـ.
- مسند الإمام أحمد بتحقيق شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرين – ط/الأولى مؤسسة الرسالة ١٤٢١ هـ.
- مسند البزار بتحقيق محفوظ الرحمن ط/١ مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة ١٩٨٨م.
- مصنف ابن أبي شيبة بتحقيق كمال يوسف الحوت ط/١ مكتبة الرشد بالرياض ١٤٠٩هـ.

-معجم ديوان الأدب للفارابي بتحقيق د. أحمد مختار عمر. طبعة مؤسسة دار الشعب بالقاهرة ١٤٣٤هـ.

-مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب لأمين الخولي ط/١ عن الهيئة العامة المصرية للكتاب.

-موطأ مالك بتحقيق بشار عواد وحمود خليل. طبعة مؤسسة الرسالة ١٤١٢هـ.

-مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ٣/ ١٢ طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان من دون تاريخ

-النبأ العظيم د محمد عبدالله دراز ط/١ ١٩٦٠م مطبعة السعادة مصر.

-نضرة الإغريض في نصرة القريض للمظفر بن الفضل نسخة مصورة عن موقع مكتبة المصطفى على الشبكة العنكبوتية.

-نهاية الأرب في فنون الأدب للنويرى بتحقيق د/ على أبو ملحم الطبعة الأولى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ٢٠٠٤م.